

من ذلك ولم تذهب هذه الخرافة بظهور الإسلام بل بقيت بعده وأيدها عنناء المسلمين في القرن الرابع للهجرة وقد حدث صاحب الأغاني في كتابه أن بشر بن مروان كان يحب الإفساد بين الشعراء فلما ولي العراق أمر سراقه البارقي أن يهجو جريراً ويفضل عنده الفرزدق فقال أبياتاً منها:

إن الفرزدق برزت أحسابه ... عفواً وغودر في الغيار جرير

فأمر بشر أن تكتب هذه البيات إلى جرير وأن يؤخذ بالإجابة عليها فلما وصنت الأبيات إلى جرير خلا إلى نفسه سواد الليل فلم يصنع شيئاً فلما كاد يأخذه اليأس سمع قائلاً يقول في زاوية من زوايا البيت ويحن يا جرير غبت عنك ليلة فلم تصنع شيئاً هلا قنت :

يا بشر حقاً لوجهك النشم ... هلا انتصرت لنا وأنت أمير

فقال له جرير حبك حبك ثم أمم القصيدة والآن أظنكم قد عرفتم مقدار ما كان لشعر في جاهلية العرب من مكانة منية ومثولة عالية ومن استنثار بالقلوب واقتدار على الألباب ولم تكن الخطابة بأقل منه وحكم أن تعلموا أن القبيلة كانت لا تشرف ولا ينبه ذكرها إلا إذا كان لها شاعر وخطيب. الباقي للآتي .

#### النهضة الفكرية في سورية

الإقبال على الآداب منظومها ومنشورها أول ما تصرف إليه وجوه الأمم الآخذة بالنهوض ثم تبعث الرغبة في الفنون والعلوم بحسب الحاجة والدواعي. وبعد أن اصححت الآداب في سورية فبلغت حداً غريباً من الابتدال في القرن الثاني عشر للهجرة وأنت أدبيات أهل الطبقة الراقية في ذلك العصر تافهة بشعة لا شأن لها ولا ذوق فيها عادت فأخذت تسير نحو الحياة في منتصف القرن الثالث عشر بما هب عليها

من نسات التجديد السارية من عقول المنورين المتأدين من السوريين والمصريين والتونسيين.

فنشأ للغة كتاب وشعراء من مصر والشام ومنهم أخذوا يعودون بمنظوماتهم ومنشوراتهم إلى سالف نضرة اللغة من الرصانة ويقلدون أدياء الإفرنج في تصوراتهم. وكان لمصر في هذا الشأن يد طولى أسداها إلى الآداب العربية جد البيت الخديوي الأول فعمت المعارف في مصر ومنها انتشرت إلى سائر الأقطار. وإن كان بعض من يريدون أن يمحروا الفضل كند في سورية ولاسيما في المدارس الأجنبية يتكروون هذه الحقيقة التاريخية المدركة.

لا جدال في أن المدارس الأجنبية قد أحسنت عني عهد نشأتها في بلاد الشام واهتمت بخدمة الآداب العربية اهتمامها بخدمة آداب لغتها الأصيلة وإن بذلك كثرت صلاتنا التجارية والعنيفة مع أوروبا وأميركا وصار الإفرنج يطوفون أو يسكنون ديارنا وأميننا لا نفرع من نزول ديارهم أو الرحلة إليها.

وعني هذه الصورة أخذنا ندرك اليوم بعد اليوم نقصنا بالقياس إلى الغربيين فيسعى المنورون منا إلى بث أنوار المعارف والفضيلة ويشعرون بالصلحة العامة ويتوفرون عني إصلاح الأفكار السقيمة.

النهضة الفكرية في سورية متنونة كأبي يراقش بتنون الأوعية التي تخرج منها فهضة المسنين مثلاً آتية من مدارس الحكومة عني الأغلب عني يد أناس من العرب تعلموا التركية في المدارس المنكية والعسكرية في الولايات السورية أو في الآستانة وهؤلاء في الأكثر تعلموا ما تعلموا ليصبحوا موظفين وغايتهم أن يتدرجوا في سنك المراتب

والمناصب ليعيشوا عيش الراحة والالتكز. ولولا نفر منهم تداركوا أمرهم بعد نيل الشهادات المؤذنة بكفاءتهم من المدارس الأميرية فأخذوا يحاولون أن يكتبوا بلغتهم ويتذوقوا أدبياتها ليلبوا على أمتهم بعض ما غلب عليهم من المعارف الجديدة لقننا أن تلك المدارس لم تأتنا بخير إلا بكونها صاغت من سورية موظفين آخرين فزادت الدولة بهم عتاً فوق عبتها الثقيل من الأتراك الذين جعلوا وظائف الحكومة أقصى ما يبتغونه من درجات الكمال وسعادة الحال والمآل.

ثم أن طبقة الموظفين في جميع الأمم التي تسير على نظام الأوربيين لا يأتي في الغالب منها كبير أمر لأن الاستخدام مبني على الطاعة وارتقاء الموظفين مناط باعتزالهم وأحسن أعمالهم الخضوع لإرادة الرؤساء مهتما كانت وهناك الارتقاء مضمون ولذلك قلنا أثر موظف في نهضة الأمة الفكرية خلا أفراداً في مصر عرفوا منذ زهاء سبعين سنة إلى اليوم كيف يستعملون أوقاتهم وحريةهم ليجعلوا لكل من حكومتهم وأنفسهم وأمتهم حظاً وتكون أعمالهم سلسلة نافعة من كل وجه.

أما في سورية فإننا نجد من تذوقوا شيئاً من الأدب وحسوا أنفسهم على التوظيف لم يأتوا بما نفع في النهوض النهيم إلا إذا كانوا يروون تلك الدواوين الشعرية والأماديع النثرية التي يرسلونها في تمجيد الحاكسين على اختلاف درجاتهم تعد من الآداب في شيء ولا يحضرنا الآن اسم بضعة من الموظفين <sup>يصح</sup> أن نورد لهم مثلاً صحيحاً نحتاج به على من يوقن كل الإيقان أن الموظفين مهتما بنفوسهم من التربية والتعليم فلا يرجى أن ينزع بهم إلا في الفروع التي تمحضوا لها من خدمة الحكومة.

وإذا كانت الشام واقفة عند حد الاعتماد على مدارس الحكومة والحكومة لا تعلم إلا ما ينفعها ومدارس الأجانب لا تعنى إلا بالعرض بما نفع البلاد بقيت النهضة الفكرية

مذبذبة لا تركية ولا عربية ولا إفرنسية ولا أميركانية ولا إنكليزية ولا ألمانية ولا روسية ولا يونانية ولا إيطالية. كما أنها ليست إسلامية سنية ولا شيعية ولا باباوية كاثوليكية ولا مارونية ولا أرثوذكسية ولا برتنتانتية ولا إسرائيلية ولا درزية وبهذا صح أن نقول أن سورية بابل اللغات والنهجات كما هي بابل الأديان والمذاهب وإن النهضة في أصقاعها كأجوائها في التلون وأغوارها في الحرارة ونجادها في البرودة.

لم تنشأ في البلاد مدارس أهنية إلا في دمشق وبيروت وحمص وطرابلس وصيدا مثلاً منذ عهد قريب وهي لم تطل أعينها بعد حتى يتخرج منها تلاميذ يكون واحد منهم بألف في غنائه وكفاءته ويبد المتعنين في مدارس الأجانب ومدارس الحكومة معاً ويتقن في مدرسته أن المقصود من العلم إنارة المتعلم نفسه وذويه ونفع قومه ولغته وأمه.

ومن يساعدون اليوم على ترقية الأفكار وإزالة عشاوة الأوهام بعض الصحف وفتة من ناشئة الشام تنقى العنوم المختلفة من مدارس الغرب ولاسيما في فرنسا وسويسرا وإنجلترا وألمانيا وأناس من وجوه البلاد أخذوا يغشون ديار الغرب للزيارة وهم على قتلهم يفيدون فيم يتصونه على قومهم من مشاهداتهم وإعجابهم بأوضاع المدينة الحديثة وقصور سورية بالنسبة إلى ذلك التقدم المدهش.

هذه العوامل الثلاثة في ارتقاء سورية وهي الصحف والمعنون في مدارس الغرب والسائحون في ديارهم إذا حسنت أكثر من الآن وقويت وكثر عديد الشعاعين بها تنهض بالبلاد ولاسيما مدن الداخلية كما أفادت هجرة البنانيين خاصة في تمدين لبنان فعد من سورية بمثابة باريز من ولاياتها أو القاهرة من بلاد أقاليم مصر ولذلك كانت الحركة الفكرية في لبنان وبيروت أرقى منها الآن في دمشق وحنب إذ العلم فيها أكثر من هاتين القاعدتين وحركة لبنان وبيروت في الفكر مادية ولذلك قلنا ترى الرغبة

اليوم في مدارس بيروت والجيل منصرفه عن العلوم الأدبية والفنون بقدر انصرافها إلى إتقان اللغات الأجنبية ولاسيما الإنكليزية والإفرنسية يستخدمونها في التجارة ويتحنون منها للاستعانة عنى الهجرة إلى أميركا الشمالية وأستراليا وكندا وجنوبي أفريقية ومصر والسودان.

وبعد فإن حال النهضة غريب في هذا القطر فكما كان العبران في السهوب والوهاد في كور محدودة معروفة هكذا تجد النهضة الفكرية في انتشارها موزعة عنى المدن الآن وبعضها لا حظ لها منها إلا بقدر حظ الدساكر والقرى فترى اللادقية وعكا مثلاً بنهضتها الفكرية دون حيفا ويافا مثلاً مع أن لثنديتين الأولىين تاريخاً مجيداً مهماً ونابلس وحماة متشابهتان وإن كانت الأولى تفوق الثانية بكثرة الناهضين لتنعيم من أبنائها وحصص تشبه طرابلس والصنت تشبه بعينك ولكن هناك نحو مئة بندا لا تقل نفوس الواحدة منها عنى بضعة ألوف من السكان وهي لا تخرج في فوضها الفكري عن أحقر المزارع وذلك مثل دومة وجوير وعربيل وداريا في غوطة دمشق وبيروود وجيروود ودير عطية والنبك في جبل سنير (قلنون) وحاصبيا وراشيا في وادي التيم والسويداء والرمتا ودرعا ونوى وبصرى في حوران وغيرها من أمهات القصبات في ولايات سورية وحب وبيروت ومنتصفيات لبنان والقدس والزور وهي جماع أقاليم بلاد الشام.

قننا أن نهضة سورية ذات ألوان كثيرة وذلك لاختلاف مصانع الأمم العربية في هذه الديار ولنسياسة والدين تأثير شديد في هذه الحركة ولولاها ما رأينا تلك المدارس المبتوثة في القدس والناصره وبيروت ولبنان ودمشق وحب ومرعش. بل في بعض القرى والقصبات. وبيننا تجد الدولة تجد ولاسيما في العهد الأخير بنشر لغتها وكادت

ولاية حنب تعد من الولايات التركية نجد الأرض المقدسة ولاسيما طبريا وحيفا ويافا والقدس توشك أن تعد ولاية إسرائيلية وذلك لكثرة المهاجرين في العشرين سنة الأخيرة من الإسرائيليين الروسين والنصارويين والألمان وغيرهم ومنهم دعاة الصهيونية يريدون أن ينشأوا مع الزمن في فلسطين ممكنة تكون سداها ولختها بيد أبناء إسرائيل من أجل هذا تراهم في مدارسهم لا يعنون العربية ويعنون اللغة العبرية لغة التعنيم والتخاطب ولهم في فلسطين جرائدهم ومطبوعاتهم ينشرونها عنى منحهم بمأمن من مراقبة الحكومة وتوفيق الخطة عنى ما يلاءم مصنحة البلاد ولذا تشهد في مدن فلسطين ولاسيما في القدس ويافا وحيفا غرائب الألسن فظنك في بور سعيد اليوم تشمع بضع لغات والبلاد عربية ولكن بالاسم فقط.

ومهما يكن من صيغة النهضة في قواعد البلاد ومدنها فإن أعمالها من بلاد الأقاليم كالقرى والديساكر لا تزال بمعزل عن كل نهضة وحسب أنك تمر إلى اليوم في بضع قرى ولا تجد من يستطيع أن يقرأ القراءة البسيطة فضلاً عن كتابة سطرين وهذا شأن الأقاليم التي لم تدخل إليها الإفرنج أو دعاة البرتانتية عنى القل مثل الصنت والكرك وتشئ المدارس لبث دعوتها كعظم ألوية حوران والكرك واللاذقية والزور.

نعم تسير الأيام الطويلة ولا تشهد المكان إلا كنا كانوا منذ بضعة قرون تحتاز تدمر وجرش وبلاد موآب وأرض الشراة والبنقاء وأرض منبج وحوران والرقة وبلاد الجولان وأرض الصفا والنجاة وغيرها فلا تكاد ترى مدرسة أهنية تذكر ماضي هذه الأقاليم فلا تبيث أن تهمل عبراتك عنى بلاد نام عنيا رعائها وأقاليم كل منها بمساحه وخصبه وذكاء أهله ومضائهم لا يقل عن أحسن أقاليم قارتي أوربا وأميركا.

ربما توهم واهم أن الحرية العثمانية أبرزت من القوى ما كان كامناً في النفوس ولكننا لم نشهد من علائها شيئاً يستحق الذكر اللهم إلا أولئك النفر من المتأدبين الذين جربوا أنفسهم في نشر الصحف واخالات وتأليف الأسفار والمترجمات يحاولون منها الرزق أولاً فحسر أكثرهم عني أن معظم ما نشر في السنين الأربع الأخيرة من المصنفات والمقالات يدل عني أن الأمة هنا لم تزال في دور التجارب وهيهات أن تعد في مصاف الأمة المصرية حتى بعد ربع قرن فالأسماء هنا أكثر من المسنيات وإن تكن الهمة عالية أكثر من مصر في الجملة ولكن أين نحن من نضوج العنم في وادي النيل وتلك الفئة الرشيدة من العناء والكتاب والمفكرين والسياسيين والخطباء الواعظين.

يقولون أن الكليتين الأمريكية واليسوعية في بيروت تخرجان رجالاً أكفأً فإين آثارهم نستدل بها عني فضنهم ووطنيتهم وما نخالهم يستطيعون أن يأتونا بغير مقالات خيالية أو قصص غرامية مسنوخة أو مسوخة من اللغات الأجنبية. وكان في مقدرة أولئك المتعنين عني التواء في نظام تعليمهم أن يأتوا وهم متوفرون عني أعمالهم المادية بشيء من المعارف لوطنهم يخدمونه بها ولكن القوم بلغت بهم الأثرة وحب الماديات حتى صاروا لا يتعنون العنوم إلا إذا كانت تنفعهم لجلب الرزق وما عدا ذلك فليس له حظ من الأعراب في جنة حاملهم.

وهذا من آكد الأسباب التي دعت فئة من المتعلمين ولاسيما في لبنان والساحل أن يعرضوا عن درس اللغة العربية ويستعضوا عنها بالانصراف إلى تعلم إحدى اللغات الأجنبية لأن هذه بزعمهم تعود عليهم بمجماع الفضائل والخامد والعنى وتلك لا تقديم في مادياتهم ولا في أدبياتهم ولكن فات هذا الفريق من المتعلمين إهم مهنا بنهوا من أحكام ملكة اللغات الأجنبية لا يتعدون فيها قدر الترجمان البسط وإن من جميع من

اشتهروا بإتقان اللغة الإنكليزية أو الإفرنسية حتى الآن من أبناء سورية لا نعرف بضعة أشخاص يستحقون أن تنشر مکتوباتهم في مطابع الغرب إلا بعد أن ينظر فيها أبناء تلك اللغة وينقوها ويتعاورونها بالحذف والإثبات.

وبعد فإن النهضة الفكرية لا تكون عني أمتها إلا بالتعليم وهذا التعيم مفقود من سورية النهم إلا علة مناحي الفرنسيس والأميركان وغيرهم ولذلك كانت النهضة السورية أشبه بمجنين لم تظهر سحته وتم خلقت. وما دام الفرنج من جهة والترك من أخرى يتحيل عني بلاد الشام أن تدعي بأن فيها هضة فكرية عربية ولا يفعل أكثر من يعنون إلا أنهم ينقون أنفسهم إلى أبناء اللغة التي يتعلمونها وينسخون من قوميتهم.

وربما يقول بعضهم ما هذا الغف في تقدير هذا الخطر المداهم والمتعسبون أفراد والسواد الأعظم لا في العير ولا في النفر لم يبرحوا عني الفطرة ويتعنون ما سيكتب لهم فالجواب أن الأفراد هم العدة والفرد المتعتم اقدر عني معرفة المدخل والمخرج من عشرة آلاف أمة ولو كانت كثرة العدد تنفع كل حين لما رأينا سكان الهند يخضعون للإنكليز وجزائر الملايو أو جاوة يخضعون لنهولانديين وغيرهم من الأمم الشرقية الضعيفة يخضعون لغيرهم من الأمم الغربية القوية. وعني الجملة فإن هضة سورية عني غير ما تقتضي الحاجة الوطنية فهي لا شرقية ولا غربية بل هي من كل البندان وثمره كل الشعوب والناس قد شعروا بنقصهم ويسعون عني تعيم أبنائهم في معظم الأقاليم والشعور بالنقص أول درجات الكمال كما أن ميل الناس إلى المشاركة في المسائل العمومية دعا إلى ترقية الخيط والتجافي عن تافه الأحاديث فعسى أن تنو هذه الجرائم وتنتقل من دور الحضانة إلى دور الطفولة والفتوة في قليل من السنين.